بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

الرئاسة العامة لرعاية الشباب

المعسكر المركزي

لإعداد القادة الاجتماعيين

بالطائف

الإسلام والتربية الروحية للشباب

إعداد وإلقاء

د.طه جابر العلواني

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

التربية الروحية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

اما بعد: فإن الحديث عن (التربية الروحية للشباب) حديث شيق من ناحية وشديد الأهمية من الناحية الموضوعية لا للشباب وحدهم ولكن لكل الناس ولجميع الأعمار فكيف إذا كان المراد تناول هذا الجانب الخطير من جوانب التربية ولا خطر فصيلة من فصائل الأمة، ألا وهي فصيلة (الشباب).

فالشباب اهم عناصر التغيير في الأمة ايجابيا كان ذلك التغير او سلبيا ومهمة التغيير هذه التي تقوم على اكتاف الشباب تحتاج أول ما تحتاج إليه: حسن إعداد عقلي ونفسي وروحي وجسدي، ولذلك تجد القرآن العظيم يعرض صورا كثيرة من صور الإعداد الذي هيأه الباري سبحانه لعناصر كان قدر لها جل شأنه أن يكون لها دور او أثر في قيادة عملية تغيير في شعب أو أمة أو قبيلة. فالقرآن العظيم يذكر لنا كيف اعد موسى عليه السلام إعدادا سماه الباري جل شأنه صناعة لإحداث عملية التغيير في بني اسرائيل، فقد تعرض القرآن العظيم لذكر مراحل إعداد هذا الرسول الكريم، وعقب عليه بقوله: (ولتصنع على عيني) فالرجال –إذن– يضعون صناعة لكنها اعقد وأشق وأخطر بكثير من صناعة الأشياء والأجهزة ايا كانت درجة تعقيد تلك الأجهزة.

كما انها تحتاج إلى اللطف الإلهي أولا وأخرا فالإنسان كائن مركب: له عقل وحكمة وطبيعة وشهوة وتشاركه في الوجود مخلوقات اخرى تختلف عنه وهي أنواع ثلاثة:

الأول: الملائكة وهؤلاء مخلوقات لها عقل وحكمة فقط، وليس في تركيب خلقتها طبائع وشهوات، ولذلك وصفهم الله –تعالى– بأنهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) ولا يعصون الله ما أمرهم، ويخافون ربهم من فوقهم، ويفعلون ما يؤمرون، ويشارك هذا الصنف عالمان آخران هما الجن والشياطين.

الثاني: مخلوقات ركبت فيها الطبيعة والشهوة دون العقل وهي سائر الحيوانات.

والنوع الثالث: مخلوقات ليس لها عقل أو حكمة أو شهوة، ولكنها مخلوقات سخرها الله –تعالى– تسخيرا للأنواع الثلاثة المتقدمة وفي مقدمتها الإنسان، وهي الجمادات والنباتات.

ولما أوحى الله –تعالى– الى الملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة) قالتا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون) فالملائكة أدركت أن هذا المخلوق قد ركبت فيه مع العقل والشهوة والغضب، وما دام الأمر كذلك فإن عنصري الشهوة والغضب سيغلبان على العقل ويسخرانه لقضاء الشهوة وتنفيذ مقتضى الغضب، وبذلك يعم الفساد، ذلك هو مقتضى اعتراض (الملائكة) على استخلاف (الآدميين) ولكن الباري جل شأنه قد اجابهم (إني اعلم ما لا تعلمون) ولعل هذا الذي يعلمه الخالق وجهلته الملائكة: أن هذا الترتيب وإن اشتمل على اسباب الفساد، فإن هناك وسائل لمنعه يمكنها أن تحقق توازن بين جانبي (الشهوة والغضب) و (العقل والروح والحكمة) فيه فإذا كانت الطبيعة والشهوة والغضب تدفعه نحو سفك الدماء واحداث الفساد فإن (العقل والروح والحكمة) ستوجد فيه معارف واشواقا إلهية تكفل له تحقيق توازن بين هذا وذاك.

هذا التوازن الذي لا تتقبله الطبيعة الملائكية،ولا الهيئة الحيوانية فهذا المخلوق مع أنه مركب من الشهوة والغضب الذين يجعلان فيه استعدادا لسائر الأخلاق الذميمة والصفات السيئة فأن له قلبا اودع فيه الاستعداد الكامل لقبول نور العرفان الإلهي الذي إذا تفعل به تحول إلى إنسان رباني يكون لسانه معلنا بتوحيد الله وذكره، وعيناه طريقا إلى رؤية دلائل الحق، واذناه محلا لسماع وحيه وتلقي كلامه ولذلك كان هذا المخلوق الذي هو الإنسان هو المخلوق الوحيد من الأنواع الأربعة من الموجودات القادر على أن يرتقي بفضل الله تعالى ولطفه إلى مراتب الملائكة والمقربين المعتكفين على عتبات جلال الله –تعالى– الدائمين على ذكره ، المتفكرين في آلاءه، المتوكلين على فيض فضله، الكستغرقين في محبته، كما يستطيع أن يهبط إلى محيط البهائم المسيرة بشهوتها، ونزوات رضاها وغضبها ولذلك فإن من غير العسير أن نلاحظ في بعض الأحيان اناسا بأشكالهم قد تحولوا بسيطرة شهواتهم إلى ما يشبه خنزيرا اشبع ثم ارسل في أنواع

من النجاسات يلتهمها او ذبابا كلما ذب المال الى ما ذب عنه من جديد، أو كلبا عقورا أو فحلا صئولا، أو نارا محرقة.

وهذه الأحوال المتناقضة والصفات المتباينة كلها يمكن أن تظهر على هذا المخلوق الفريد في نوعه من بين الموجودات، فوجوده بهذه الاستعدادات المتباينة على قدرة قاهرة مطلقة، وحكمة غير متناهية.

فهو المخلوق الوسط بين عالم الملائكة الروحاني المحض، وبين عالم الأجسام الحيوانية الخاصة، فهو إذا توجه إلى العالم الإلهي كان قابلا وإذا توجه إلى العالم المادي كان فاعلا.

هو المخلوق الذي تشده الأشواق الروحية إلى أعلى، وتجذبه الشهوات الجسمية إلى أسفل ، والشوق إلى الله –تعالى– مقام عال شريف عليه مدار آلام الأرواح ولذائذها وبه يمتاز الإنسان عن بقية الموجودات التي تعجز عن الاحساس به، ومنها الملائكة.

الروح غير البدن:

إذن: فالروح غير البدن، ولها وسائل تربية مخالفة تماما لوسائل تربيته ولها أغذية تتغذى بها، وأدوية تعالج بها وأمراض تعتريها، إن الله –تعالى– يقول (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) وقال في صفة المعذبيين (النار يعرضون عليها غدوا وهشيا) وقال(مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) وقال (أخرجوا اأنفسكم).

ولقد ذكر الله –تعالى– مراتب الخلقة الجسمانية فقال :(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين .....أحسن الخالقين) وهذا كله يدل بوضوح لا يزيد عليه: أن الروح شيء والجسد شيء آخر ويؤيد هذا ويقويه قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم أنفسهم) والإنسان لا ينسى جسده الذي يراه في كل حين ويطعمه ويسقيه ويكسوه، ولكنه ينسى شيئا آخر غيره ألا وهو النفس والروح.

ولقد انحرفت فطرة قوم توهموا أن السعادة هي في تحصيل المنافع المادية واللذائذ الحسية من قضاء شهوات البطن والفرج، ولو كان الأمر كذلك لكان الإنسان وبالكثير من الحيوان في هذا الجانب، أن لم يتفوق عليه بعضها، ولا قائل بهذا.

إن الإنسان لا يفتخر بكثرة الأكل أو الشرب أو الوقائع، بل كثيرا ما يعير بكثرة ذلك ولو كانت هذ الأمور مما يؤدي إلى السعادة لما امتدح الناس الزهاد والعباد، وتعلقوا بهم، واعتبروا مستحقين لاحترامهم وتقديرهم، خلافا لاؤلئك الذين اشتهروا بالشره والنهم.

إن الحكماء قد اوضحوا: أن اللذائذ الحسية في حقيقتها –ليست بلذائذ، بل يرجع حاصلها إلى دفع الآلام فإنه لا معنى للذة الأكل إلا دفع ألم يحصل عن الجوع، ولا معنى للذة الوقاع إلا دفع ألم معين ناجم عن احتقان في أوعية خاصة بالمني فخروجه بالشكل المخصوص يزيل ذلك الإحساس بالألم، ولا معنى للذة سوى دفع ألم الحر والبرد.

إن الإنسان إذا احتبس بوله أو حدث له إمساك فإنه يحس بألم شديد فإذا تخلص من ذلك وخرجت نلك الفضلات فإن إحساسا بالراحة واللذة يغمره.

إذن: فهذه الأمور التي ينظر الكثيرون إليها على أنها لذائذ ليست –في الحقيقة– سوى عمليات تخلص من آلام، واشتغال النفس بها آلام آخر، بل هي حال كونها لذة ممزوجة بالآلام، مشوبة بالمكدرات.

السعادة الحقيقية في اللذائذ الروحية:

وهذه السعادة واللذائذ لا تدرك بالوصف بل بالمطالعة أنه إذا أراد امرؤ أن يصف لذة الوقاع لصبي صغير فإنه مهما أوتي من بلاغة أو فصاحة لا يستطيع أن يفيده تصورا لهذا النوع من اللذة حتى يبلغ، فيباشره بنفسه.

إنه ما من إنسان إلا وهو فازع إلى السعادة، طالب لها، ولكنه كثيرا ما يخطئ طريقها، ويقبل سلبياتها، فيظن ما ليس بسعادة –في ذاته– سعادة فيغتر بها، وتشبث بكل وسيلة للوصول إليها ولكنه سرعان ما يكتشف أنه (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءا حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) ولذلك وصف الله –تعالى– أعمال قوم (كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون على شيء مما كسبوا على شيء).

إن لكل قوة من قوى النفس، وجزء من أجزاء البدن لذة تختص بها لا يشاركها فيها غيرها فلذة العين في النظر إلى ما تستحسن ولذة السمع في الاستماع إلى ما يستطاب سماعه،

ولذة اللمس في لمس ما يستلذ لمسه، ولذة الوهم في تصور ما يؤهله، ولذة الخيال في تخيل ما يستحسن تخيله ولذة الفكر في التعرف على مجهول أو اكتساب معرفة.

أما اللذائذ الروحية فهي لذائذ لا تدرك إلا بالعقل المخلص الخالص الصافي، والقلب المستنير المشرق الذي لا تكدره الحجب ولذلك يقول رسول الله ﷺ (إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة).

فما الطريق إلى هذه اللذة، وما السبيل إلى هذا النوع من السعادة؟

١- التخلص من الرذائل والشوائب:

أن الإنسان حين يولد تكون معه مجموعة من الفضلات والشوائب التي لا بد من إزالتها فور الولادة فيقطع ما يربطه بالمشيمة وتزال عنه جميع الفضلات التي تنزل من الرحم.

فإذا تقدمت به السن ظهرت فيه فضلات من نوع جديد كالأوساخ المكتسبة من البيئة وشعر العانة وما تحت الإبط والأظفار وغيرها.

كذلك تهبط معه بعض الأوساخ النفسية التي لا بد من إزالتها كالجهل والشره والعجلة والشح والظلم، ويدل على كون ذلك مخلوقا فيه، وأنه مأمور بالتخلص منه قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) (سأريكم آياتي فلا تستعجلون) (إنه كان ظلوما جهولا).

إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزعا وإذا مسه الخير منوعا) (احضرت الأنفس الشح) (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (وكان الإنسان كفورا) (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا) (وكان الإنسان أكثر شيئا جدلا).

وكما أن من الضروري إماطة الفضلات المصاحبة له، فإن من الضروري كذلك تطهير نفسه من الأقذار المصاحبة لها ليحيى الحياة الطيبة الهانئة (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ولكي لا تتحول الطيبات التي خولها الله تعالى للإنسان إلى وسائل لتغذيته لا بد من تطهير النفس وتزكية الروح، وتنقية القلب من تلك الشوائب: (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) ولتحقيق هذا الهدف : (التخلص من الرذائل

والشوائب) لا بد من بذل الجهد والعمل المتواصل لإصلاح القوى الثلاث التي عنها تنبثق الدوافع الإنسانية وهي:

قوة الشهوة.

قوة الحمية.

قوة الفكر.

فالبعمل على تهذيب الشهوة وتقويمها يحقق الإنسان بنفسه العفة، فتصونه عن الشره، وما يستتبعه من شرور وتدفعه إلى العمل على تحري الاعتدال والتوازن في المأكل والمشرب والملبس والمنكح، وسائر اللذات الحسية.

وبإصلاح (قوة الحمية) يتخلص الإنسان من سائر الخصال النفسية الذميمة المرتبطة بهذه القوة: فتخلص من التهور والاندفاع الأهوج والجبن والحسد ويتحرى الاقتصاد والتوازن في الخوف والغضب والأنفة ونحوها.

وبإصلاح (قوى الفكر) يتوصل الإنسان إلى الحكمة والاتزان الكامل، ويضع كل أمر موضعه (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا).

٢-وجماع وسائل إصلاح هذه القوى (العبودية لله) فالعبادة كما يقول ابن تيمية :اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة: فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإثابة، وإخلاص الدين له والصبر لحكمه، والشكر لنعمه والرضاء بقضاءه، والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله تعالى وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له، التي خلق الخلق لها (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وبها أرسل جميع الرسل (أعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

٣- وأول خطة في طريق العبودية هي (الإيمان) وذاك بأن يرسخ المرء في قلبه الإيمان الكامل بالله –تعالى- ويربط قلبه وذهنه وعقله وفكره على أأنه لا إله ولا مالك ولا حاكم، ولا معطي ولا مانع إلا الله تعالى.

وأنه لا ينبغي أن تكون لحياته ولا لأي وجه من وجوه نشاطه فيها إلا غاية واحدة هي حب الله تعالى وإرادة رضاه.

وعليه أن يبذل كل جهده لتقوية هذا الاعتقاد وترسيخه بالقيام بسائر أنواع العبادة التي ذكرناها.

٤- والخطوة الثانية هي الطاعة التامة لله تعالى وانسلاخ المرء من كل نوازعه وهواه وجعلها تبعا لما به أمر الله تعالى وليتحقق ذلك لا بد أن يتحرى المرء في كل خطوة أو فكرة أو قول أو تصرفا رضا الله تعالى وطاعته.

٥- فإذا وطن الإنسان نفسه على ذلك حتى استمر على الطاعة ونفرت عن المعصية وتحول الإنسان إلى إنسان رباني مميز بين الخير والشر والصواب والخطأ والحلال والحرام ينظر بنور الله تعالى استحق آنذاك لقب (المتقي) واتصف ب (التقوى).

٦_ فإذا واظب على ذلك ارتقى إلى مراتب (المحسنين) الذين لا يحبون إلا ما يحبه الله ولا يغضبون إلا ما يغضبه الله، ولا يكتفون بتجنيب أنفسهم الفواحش والمنكرات، بل لا يألون جهدهم في تنقية الحياة كلها من الشرور إرضاءا لله تعالى وغرس بذور الفضائل في سائر جوانبها وهذه أعلى المراتب.

ولله –تعالى- حكمته البالغة في هذا التسلسل ليكون في مقدور كل إنسان أن يصل إلى المستوى الذي يستطيعه.

فالمرحلة الأولى التي هي الإسلام يمكن تحقيقها بنظام يقوم على أربعة أركان بعد الإيمان وهى:

الصلاة

هي صلة العبد بربه، وغذاء قلبه وراحة روحه، فهي وجبات روحية منكررة تتغذى بها الأرواح وتحيا بها القلوب، وتحتمي بها النفوس من داء الغفلة، ومرض البعد عن الله تعالى.

ولذلك كانت فريضة الله على عباده، عماد دينه، والفارق بين المؤمنين به والكافرين، وشرط الفلاح، وسبيل الفوز ودعامة التقوى.

فهي الفريضة المحكمة الذائمة التي تصاحب الإنسان من سن التمييز إلى لحظة الوفاة، لا تسقط عنه بحال.

والصلاة عبادة قلبية وعقلية وجسمية فكل إنسان يشترك فيها ولكل من قلبه وعقله وجسمه نصيب منها، فللقلب الخشوع والرقة والراحة، وللعقل التفكير والتدبر والتفهم وللسان الذكر والتلاوة، وللجسم القيام والركوع والسجود والجلوس.

والصلاة بهذا كانت جزء من اعجاز التشريع الإسلامي، فإنه ما كان لامة من الأمم عبادة تشترك فيها أعضاء الإنسان ويمثل فيها الإنسان كله قبلها وهي بالإضافة إلى ذلك تحقق غاية العبودية والإخبات لله تعالى، وتجديد إيمان العبد بربه، وتمنحه طاقة روحية كبيرة تساعده على مقاومة المغريات والتزام الطاعات، والتغلب على نوازع الضعف البشري.

وللصلاة شروطها وأركانها، وهيئاتها، فإذا المصلي راعى ذلك كله وقام بها على صفتها المشروعة فإنها ستترك في نفسه آثارا روحية عميقة فتصل ما بينه وبين ربه وتقطع ما بينه وبين الشيطان (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر).

وقال تعالى : (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) فهي علامة اساسية ودليل قوي على الاهتداء والتقوى وهي سبيل الفلاح (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى)

وقد ذكر الله –تعالى– أهل النار وذكر بعض الأخلاق الذميمة التي استحقوا النار بها واستثنى من ذلك المصلين، فصلاتهم تحميهم من التخلق بأخلاق أهل النار(إلا المصلين الذين هم

على صلاتهم دائمون وقال تعالى حكاية عن أهل النار (ما سلككم في صقر قالوا لم نك من المصلين) فتركها أول أسباب دخولهم النار.

وقال تعالى وهو يذكر المؤمنين ويبين أسباب فلاحهم (والذيين هم على صلاتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون).

ولما للصلاة من أهمية في تربية المسلم وتقويم سلوكه ووصله بالله تعالى فقد اعتبرها رسول الله ﷺ ملجأ المسلم ومعقله الذي يأوي إليه من ظلمة الغفلة وغربة البعد عن ذكر الله تعالى عن حذيفة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى[1].

وروى أبو الدرداء: كان النبي –ﷺ– إذا كانت ليلة ريح شديدة كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح وكان إذا انكسفت الشمس أو القمر صلى حتى تتجلى[2]. والصلاة قرة عينه عليه الصلاة والسلام وجعلت قرة عينه في الصلاة[3].

وكانت الصلاة ربيع قلبه –عليه الصلاة والسلام– وراحة نفسه فكان يقول لمؤذنه بلال: يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها[4].

وكان هذا شأن الصحابة رضي الله عنهم فقد أخرج أبو داود عن النضر قال: كانت ظلمة على عهد أنس فأتيته فقلت: يا أبا حمزة هل كان هذا يصيبكم على عهد رسول الله –ﷺ؟ فقال معاذ الله .. إن كانت الريح لتشتد فنبادر إلى المسجد مخافة أن تكون القيامة[5].

وعرف ذلك عنهم حتى من قبل أعدائهم حيث كانوا يتحينون لهم فرصة انشغالهم بالصلاة للانقضاض عليهم ولكن الله تعالى قد شرع صلاة الخوف ليفوت على الأعداء الفرصة ولكي لا يحرم المسلمين من أحب الأعمال اليهم وهي الصلاة، وقد روى مسلم عن جابر قال: غزونا مع رسول الله –ﷺ– قوما من جهينة فقاتلوا قتالا شديدا (إلى أن قال) وقالوا أنه ستأتيهم صلاة هي أحب إليهم من أهليهم وأموالهم فاستعدوا حتى تغيروا عليهم، فأنزل الله عز وجل على نبيه: (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة)[6].

---

[1] رواه أحمد في المسند وأبو داود في السنن على ما في الفتح الكبير ٣٥١\٢.
[2] رواه الطبراني عن النعمان بن بشير على ما في الفتح ٣٤٨\٢.
[3] رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي على ما في الفتح ٦٨\٢
[4] رواه أحمد وأبو داود على ما في الفتح ٣٩٠\٣.
[5] رواه أبو داود على ما في الأربكان الأربعة للسيد الندوي ص٣٠.
[6] وروى نحوه عن أبي هريرة وابن عباس. أنظر تفسير الطبري وبهامشه النيسابوري ١٥٧\٥ وما بعدها.

إنه ما من شرط ولا ركن أو واجب أو مندوب أو هيئة، فعل أو فكر أو ذكر في الصلاة إلا وفيه من الحكم والأسرار والفوائد الظاهرة والباطنة ما لا يحصى فمن حكمها ما أدركه بعض العلماء الصلحاء، ومنها ما لم يدرك.

إننا في حاجة إلى إدراك روح الصلاة لنحبها، ونريح أرواحنا فيها وروي أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– قال على المنبر: إن الرجل يشيب عارضاه في الإسلام وما اكمل لله تعالى صلاة. قيل: وكيف ذلك؟ قال لا يتم خشوعها وتواضعها واقباله على الله عز وجل فيها[٧].

وفي الحديث: ما بال أقوام يحضرون صلاتهم ويتمون صفوفهم ونبيهم بين أيديهم لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم؟ إلا أن بني إسرائيل كذا فعلوا فأوحى الله –عز وجل– إلى نبيهم أن قل لقومك: تحضروني أبدانكم، وتعطوني السنتكم، وتغيبون عني بقلوبكم، باطن ما تذهبون إليه[٨].

فالأصل في الصلاة: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والقلب موضع نظر الرب –تعالى– وطهر موضع نظره –جل شأنه– ولتكن صلاتك صلاة الخاشعين المخبتين، لا صلاة اللاهين الساهين، فنسأل الله –تعالى– أن يوفقنا لإقامة الصلاة، وينفعنا بها في الدنيا والآخرة[٩] إنه سميع مجيب.

---

[٧] أنظره في الإحياء ١\١٧٢.

[٨] الحديث مروي بإسناد صحيح. انظره في المرجع السابق.

[٩] يستعان لشرح شيء من حكم الصلاة واسرارها بنحو (مدارك السالكين) ومنها (منهاج القاصدين) و (إحياء علوم الدين) ومع العبادات مع التنبيه لتخريج الأحاديث. وكذلك حجة الله البالغة والرسالة الحميدية للشيخ الجسر و(الأركان الأربعة) للندوي.

الزكاة

الزكاة في مظهرها تصرف مالي لا غير، فلا يمثل فيها من الإنسان إلا أجزاؤه التي تقوم بالتصرفات المالية، هكذا يتوهمها من لا فقه له.

والحق: أنها كالصلاة عبادة مثل فيها قلب الإنسان وروحه وعقله وجسمه فالقلب منها النية، والعزم وعائده منها التطهر وحب المال والحرص عليه، واشراكه بالله تعالى.

وللروح منها التسامي على المادة في سبيل خالقها، وعائدها منها: الطمأنينة إلى ما عند الله والإحساس بنعمته حين رزق، ونعمته حين أقدر على العطاء، وفضله حين هدى الله.

وللعقل منها الحكم على الأعضاء بالإعطاء، إبتغاءا للرضا، ورفعا للبلاء ووقاية للمعطي من أن يكون عرضة للحقد، ومنعا للمعطي من الإنشغال بالسخائم في الدنيا ووقايه لهما من النار في الأخرة. وعائده منها: إدراك الأشياء على حقيقتها ووضع كل شيء من نفسه موضعه وإحلاله محله والنظر إلى المال على أنه الخادم للإنسان وليس الإنسان خادما له. وأما الجسم فبأعضائه الظاهرة يباشر العطاء والأخذ.

إن جمع المال عملية يشترك فيها الإنسان كله، وكذلك إنفاقه عمل يشترك فيه الإنسان كله ، وإذا كان هذا الإنفاق عبادة فهو عبادة للإنسان كله.

إن الله –تعالى– قد جعل المن والأذى والرياء، والجزاء من الناس أو الشكر منهم والشعور بأنها عزم والإحساس بالتعالي كل ذلك جعله مبطلا للزكاة، ماحقا لثوابها، ذاهبا بأثارها ، وكل ذلك –كما ترى– أمور معنوية.

الزكاة: جزء من الإعجاز التشريعي الإسلامي، فإذا قلت:إنها تطهر نفس المعطي من الشح والبخل فذلك بعض فوائدها (ومن يوق شح نفسه فألئك هم المفلحون)[١٠]، وإذا قلت: إنها تربي المسلم على الإيثار والتضحية، وتزيل عن قلبه الأثرة والأنانية وحب الذات– فذلك جزء من تأثيرها وهي –بعد ذلك– نظام اقتصادي للتداول لا يمكن لأي نظام غيره أن يؤدي دوره.

---

[١٠] قال العلامة الكهنوي في كتابه رسائل الأركان "إن الزكاة ليست غرامة بل عبادة خالصة لله –تعالى- كسائر العبادات، لا بد في أداء الزكاة من النية ، لأن الزكاة عبادة عظمى ، أحد أركان الإسلام كالصلاة، لا يقصد منها إلا الثواب، فلا بد من النية، وإن أدى بلا نية لا يتأدى الوكاة : كالصلاة، لأن الصلاة لا تخلو بلا نية، بخلاف الزكاة من دون النية، فإنها تصير هبة، وينا لثواب الهبة، لأن الله لا يضيع أجر من احسن عملا. عن الأركان الأربعة ص ١١٤.

وهي عملية تطهير للمجتمع بكل عناصره مما يحوله إلى طبقات –يمكن أن تتناحر فيما بينهما في أي وقت.

وهي تقضي على شبح الخوف، وتحل الطمأنينة والرضا محله بين أفراد المجتمع كافة، فالغني يتعلم منها أن المال الذي في يده مال الله قد استخلفه فيه، فيقوي إيمانه وتزداد ثقته بالله، وذكره له (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) والفقير يتعلم منها: أن له ضمانة ضد الفقر، وإن له حقوقا يستطيع الحصول عليها متى شاء لدفع غائلة الفقر والحاجة عنه، وإن أصحاب الأمر ما هم إلا إخوان له يشكلون له ضمانة وغطاء من الفقر والفاقة.

إن الزكاة تعلم المسلمين التكافئ والتكافل. فالغني المؤمن بالله العارف بأحكام الزكاة – يؤمن أن له آلاف من الشركاء– هم إخوانه فقراء المسلمين ومعوزوهم– فيحول ذلك بينه وبين البطر والبذخ والإسراف، وجميع التصرفات الضارة.

والفقير يشعر بأن له حقوقا في هذه الأموال– فيعاف أن يبسط يده بالاستمداد والاستجداء.

الأموال التي تجب فيها الزكاة: وحكم التفاوت بين النصب والمقادير:

حدد رسول الله –ﷺ– مقدار الزكاة، والأموال التي تجب فيها، ونصب هذه الأموال، وزمن وجوبها.

وقد جعلها في أربعة أصناف من الأموال هي:

١- الزروع والثمار.

٢- بهيمة الأنعام: الإبل والبقر والغنم.ط

٣- النقدان : الذهب والفضة

٤- أموال التجارة على اختلاف أنواعها.

قال ابن القيم في (زاد المعاد) مبينا حكمة اختيار الأموال المذكورة محلا للزكاة وحكمة التفاوت بين نصبها وحكمة إيجابها عند حولان الحول... ثم إنه أوجبها كل عام ، وجعل حول الزروع ةالثمار عند كمالها واستواءها، وهذا اعدل ما يكون إذا وجوبها كل شهر أو كل جمعة يضربا رباب الأموال كل عام مرة.

ثم إنه بين مقادير الواجب بحث سعي

ارباب الأموال في تحصيلها وسهولة ذلك ومشقته، فأوجب الخمس فيما صادفه الإنسان مجموعا محصلا من الأموال_ وهو الركاز، ولم يعتب رله حولا، بل أوجب فيه الخمس متى ظفر به.

وأوجب نصفه وهو العشر فيما كانت مشقة تحصيله متعبة وكلفته فوق ذلك، وذلك في الثمار والزروع التي يباشر حرث أرضها وسعيها وبذرها، ويتولى الله سقيها من عنده بلا كلفة من العبد، ولا شراء ماء ولا إثارة بئر ودولاب.. وأوجب نصف لاعشر فيما يتولى العبد سقيه بالكلفة والدوالي، والنوضح وغيرها وأوجب نصف ذلك –وهو ربع لاعشر– قيما كان الثمار فيه موقوفا على عمل متصل من رب المال بالضرب فيالأرض تارة وبالإدارة تارة وبالتربص تارة، ولا ريب أن كلفة هذا أعظم من كلفة الزرع والثمار أيضا، فإن نمو الزرع والثمار اظهر من نمو التجارة –فكان واجبها اكثرمن واجب التجارة، وظهور النمو فيما يسقى بالسماء والأنهار أكثر مما يسقى بالدوالي والنواضح، وظهوره فيما وجد محصلا مجموعا: كالكنز أكثر وأظهر من الجميع.

ثم إنه لما كان لا يحتمل المواساة كل مال وإن قل –جعل للمال الذي يحتمل المواساة نصبا مقدرة، المواساة فيها لا تجحف برباب الأموال وتقع موقعها من المساكين فجعل للورق مأة درهم وللذهب عشرين مثقالا وللحبوب والثمار خمسة أوسق، وهي خمسة أحمال إبل العرب، والغنم اربعين شاة، والبقر ثلاثين، والإبل خمسا[١١].

وفي عالم الاقتصاد المعاصر تظهر حكمة أخرى في فرض الزكاة في هذه الأموال كلها، وتقدير أنصبتها بهذه النسبة– تلك هي تعديل الأسعار وجعل جميع الحاجات في متناول أيدي الجميع، فإن الأموال المذكورة وهي المحتاج إليها إذا كانت في متناول– أيدي مصارف الزكاة– وهم الصناف التي تشتد حاجتها إلى تلك الأموال – لم يكن من الممكن الإحتكار– الذي هو وسيلة التلاعب بالأسعار.

[١١] أنظر زاد المعاد ٦٤٢\١ وراجع إيضاحا لذلك أكثر في إحياء علوم الدين ٢٠٨\١ وما بعدها .. وفي حجة الله البالغة ٣٢\١ وأنظر الأركان الأربعة للأستاذ الندوي.

بعض سمات الزكاة البارزة:

للزكاة سمات وخصائص تميزها عن الجبايات والضرائب القانونية –فمن هذه السمات:

ربطها بالثواب والعقاب، الثواب لدافعها إيمانا واحتسابا، والعقاب لمانعها والمتهرب من دفعها، وهذا يجعل ضمير الفرد وراء الدفع والمنع، فما دام ضمير الفرد عامرا بالإيمان فإنه يدفع طولب بذلك أم لم يطالب. وإذا ضعف إيمانه توقف عن الدفع إلا إذا وجدت قوةتكبره على ذلك.وليست كذلك الضرائب القانونية، ولتقوية هذه السمة فيها فإن القرآن الكريم والسنة الب=نبوية قد استجاشتنا الضمائر وخاطبتا القلوب لدفعها، واعتبرها الله في بعض الأيات قرضا عليه فقال (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا).

ويقول: (إن المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم).

ويقول: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مأئة حبة..... ولا هم يحزنون).

وقال: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم).

واتبع هذا التبشير الذي يثير في النفس أقصى درجات الأريحية، كالرغبة في الإنفاق على ذوي الحاجة _الإنذار المخيف لكل أولئك الذين يكتنزون الأموال ويمتنعون عن أداء حق الله فيها.

(ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله ... والله بما تعلمون خبير).

وقال تعالى: (والذين يكنزون الذهب ..... فذوقوا ما كنتم تكنزون)

وجاءت السنة النبوية المطهرة بمثل ما جاء به القرآن الكريم من التغيب في الإنفاق وأداء حق المال، والترهيب من الإنفاق والاكتناز والمنع.

فعن أبي هريرة –رضي الله عنه عن النبي ﷺ : (ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت ثمره، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصلة)[١٢].

عنه قال: قال رسول الله –ﷺ– : بينما رجل في فلاة من الأرض، فسمع صوتا في سحابة إسقي حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فإذا شرجة من تلك الشراج: وقد استوعبت الماء كله، فتتبع الماء، فإذا حل قائم في حديثة يحول الماء بمسحاته.

فقال: يا عبد الله لما سألتني عن اسمي؟ قال: سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسقي حديقة فلان باسمك. فما تصنع فيها؟

قال: أما إذا قلت هذا –فإني أنظرإلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثه وارد فيه ثلثه[١٣].

وقال: ما نقص مال من صدقة أو قال: ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بصفو إلا عزا وما تواضع عبد لله إلا رفعه الله[١٤].

وقال: ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم اعط منفقا خلفا. ويقول الأخر : اللهم اعطي ممسكا تلفا[١٥].

وروت عائشة –رضي الله عنها– قالت: إنهم ذبحوا شاة، فقال النبي –ﷺ– ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: بقي كلها إلا كتفها[١٦].

وقال ﷺ: ما أحب أن أحدا عندي ذهبا فيأتي على ثلاثة وعندي منه شيء إلا شيء أرصده في قضاء دين[١٧].

وكذلك أنذر رسول الله ﷺ مانعي الزكاة، ومن لا يؤدي حق الله في ماله بالعقاب الشديد في الآخرة والنتائج السيئة وذهاب البركة في الدنيا.

---

[١٢] أخرجه الستة إلا أبا داود.
[١٣] رواه مسلم على ما في الأركان الأربعة ص ١١٧.
[١٤] رواه مسلم والترمذي ومالك في الموطأ على ما في الأركان الأربعة ص ١١٨.
[١٥] رواه الشيخان .
[١٦] رواه الترمذي.
[١٧] أخرجه ابن ماجة عن أبي هريرة ونحوه أخرجه البخاري عن أبي زر على ما في الفتح الكبير ٣\٧٦

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: من أتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان بطوقة يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه —يعني– شقيه– ثم يقول أنا مالك أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا (ولا يحسبن الذين يبخلون).

وعنه أنها قال: (قال رسول الله ﷺ: إذا اتخذ الفيء دولة، والأمانة مغنمة، والزكاة كمغرمة، وتعلم لغير الدين وأطاع امرأته وعصى أمه وأدني صديقه أقصى أباه وظهرت الأصوات في المساجد وساد القبيلة فاسقهم وكان زعيم القوم أرفلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت الفينات والمعازف، وشربت الخمور ولعن أخر هذه الأمة أولها. فارتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وزلزلة وخسفا ومسخا وقذفا وأيام تتابع كنظام قطع سلكه فتتابع)[١٨].

ونحو هذه الأحاديث كثيرة جدا.

ولقد كانت من نتيجة هذا الترغيب والترهيب الذين وردا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إن أخذ المسلمون لا يكتفون بأداء الزكاة الواجبة المفروضة فقط، بل كانوا يكثرون من الصدقة والبر والوقف وغيرها من وجوه الخير، وكان البعض منهم لا يرى لنفسه —في ماله– حقا فيما زاد عن حاجته وحاجة عياله الضرورية.

والسنة الثانية البارزة من سمات الزكاة دفعها بروح مليئة بالإخلاص والتواضع لله والعرفان بالشكر له تعالى، ما يبعدها عن ان يكون فيها أي تعال على المدفوع اليه، فالمزكي يعلم أن المال مال الله تعالى وأنه جل شأنه ولي النعم ولو شاء لسلبه النعمة وجعل يده السفلى فكونه معطيا لا آخذا هو نعمة أخرى تستحق الشكر.

والمن والأذى والتعالي على الفقير كل ذلك مبطل للزكاة محبط للثواب، قال تعالى: (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها .....والله لا يهدي القوم الكافرين) وقد أثنى الله عز وجل على أولئك الذين

[١٨] رواه الترمذي.

يريدون وجهه فيما يقدمون ويقدمون ما يقدمون يتواضع وخشوع و إخلاص مقرونين بشكر المنعم جل شأنه فقال (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة).

وقال تعالى: (ويطعمون الطعام.....قمطريرا).

وهذا الإحسان الكريم يحمل المزكي والمتصدق على انتقاء زكاته من طيب ماله فإن الله تعالى هو الذي يقبل الصدقة ولا يقبل الله إلا الطيب.

(ياأيها الذين آمنو أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الأرض .....غني حميد)

وفي الحديث أن عائشة ﵂ أرادت أن تتصدق بلحم منتن فقال لها النبي ﷺ(تتصدقين بمالا تأكلين؟)[١٩].

تلك هي الزكاة تروض المسلم على التضحية في سبيل الله وابتغاء رضاه وتزيل عن قلبه الأثرة وحب الذات، وتنجيه من العبودية للمال وتطهره من الشح والبخل، والكلب على الحطام الفاني، وتجعله يضع الأمور مواضعها: فالمال خلق لخدمة الإنسان ولم يخلق الإنسان لخدمة المال.

ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا حرم الإسلام الربا، وشدد النكير على أولئك الذين يتعاطونه، فالربا انحراف عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، إن الإسلام أراد للناس أن يعبدوا الله، وسخر الناس والطيبات عونا لهم على ذلك، والربا يسخرهم للمال وخدمته وتنميته دون جهد.

لقد قرن الله تعالى الربا والصدقات بالذكر في بعض اياته فقال: (وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس.....هم المضعفون).

فذكر الزكاة والربا معا فيه والله أعلم إشارة إلى الفرق بين المسلم والكافر فالمسلم يعطي المال من يحتاجه ليربو أجرا وحسنات له عند الله.

والكافر يؤتي الاخرين ماله ليمتص أموالهم ويربوا على حساب جهدهم وحاجاتهم. وفيها إشارة واضحة الى كفر المرابي واثمه والى أن عائده من الربا سوف يكون

[١٩] رواه أحمد على ما في الأركان الأربعة ١٢٣

الى المحق والاذهاب، وأن كان في أول النظر الزيادة وان محق البركة، والشقاء ملموس في الحياة الدنيا، في كل المجتمعات التي تفشى فيها الربا.

وبعد: لقد شرع الله الزكاة وأحكامها ليكفل المصالح الفردية والاجتماعية للذين يعيشون في ظل الإسلام فجاء تشريعه تعالى معجزا كسائر احكام الشريعة الغراء مبرأ عن كل عيب من عيوب الضرائب والجبايات، منزها عن كل نقص.

لقد أراد الإسلام للمجتمع الإسلامي أن يقوم على روح التكافل والمواساة المستمدة بين أخوة الإيمان فإذا قامت الزكاة بذلك وأخذت من أغنيائهم وردت على فقراءهم فأزالت فقرهم، وأذهبت حاجتهم فلله الحمد والفضل وإلا فإن في المال لحقا سحقا سوى الزكاة[٢٠] حتى لا يبيت أهل عرصة وفيهم أمرؤ جائع أو عار أو لا مأوى له.

وكل ذلك لا يقوم به المسلمون عن طريق المراسيم والبيانات والشعارات، بل عن طريق الحث والترغيب والترهيب، والأسوة الحسنة برسول الله –ﷺ– فقد كان رسول الله لا يجد الراحة مع المال الفائض عن حاجته التى لا حاجة دونها ولا زهد فوقها[٢١].

عن عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: كان لرسول الله –ﷺ– عندي في مرضه ستة دنانير أو سبعة فأمرني أن أفرقها فشغلني وجع النبي –ﷺ– ثم سألني عنها: ما دفعت الستة أو السبعة؟ قلت لا والله لقد كان شغلني وجعك فدعا بها، ثم وضعها في كفه، فثقال: ما ظن نبي الله لو لقي الله –عز وجل– وهذه عنده؟..[٢٢]

وعن عقبة بن الحارث –رضي الله عنه– قال: صليت وراء النبي –ﷺ– بالمدينة العصر، فسلم ثم قام مسرعا، فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه ففزع الناس من سرعته،فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته، قال: ذكرت شيئا من تبر عندنا، فكرهت أن تحبس فأمرت بقسمته[٢٣].

---

[٢٠] يجدر بمدرس المادة أن يقف على موضوع الربا ويطنب في بيان مضاره وسيئاته والتحذير منه، عند الوصول إلى هذه النقطة.
[٢١] التعبير لأبي الحسن الندوي في الأركان الأربعة.
[٢٢] رواه أحمد، على ما في الأركان الأربعة١٤٤.
[٢٣] رواه البخاري على ما في الأركانالربعة ١٤٤.

لقد ظل رسول الله –ﷺ– يحث أصحابه على انفاق الفاضل عن حاجاتهم حتى ظن بعضهم: أن لا حق لأحد فبما فضل عن حاجته من ماله.

وقدصح عنه أنه قال: من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له[٢٤].

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله –ﷺ– ما أحب أن أحدا عندي ذهبا، فيأتي على ثلاثة وعندي منه شيء ارصده في قضاء دين[٢٥].

وفي الحديث القدسي: إن الله –عز وجل– يقول يوم القيامة:

يا ابن آدم مرضت فلم تعدني.. فيقول ابن آدم:

كيف أعودك وأنت رب العالمين؟

يقول الله أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما إنك لو عدته لوجدتني عنده.

يا ابن آدم: استطعمتك فلم تطعمني.. فيقول:

يا رب، كيف أطعمك وانت رب العالمين؟

فيقول الله: أما علمت أن عبدي فلانا استطعمك فلم تطعمه أما أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يا ابن آدم: استسقيتك فلم تسقني..

فيقول: يا رب كيف أسقيك وانت رب العالمين؟

فبقول الله: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما انك لو سقيته لوجدت ذلك عندي[٢٦].

هذا هو الاسلوب الكريم الذي يحيي في النفس كل ما اودع الله فيها من الدوافع الخيرة ويبعثها بعثا على المواساة بكل أشكالها المادية والمعنوية ليوجد المجتمع الاسلامي

---

[٢٤] رواه مسلم وأبو داود وأحمد في المسند على ما في الفتح الكبير ٢٣١/٣.

[٢٥] رواه البخاري على ما في الفتح الكبير ٧٦/٣.

[٢٦] رواه مسلم عن أبي هريرة على ما فى الفتح الكبير ٣٦٢/١.

الذي تراه وكأنه أسرة واحدة تتألف من ملايين في تكاتفها وتراحمها، وإذا نظرت إلى أسرة صغيرة من أسره رأيت فيها مجتمعا من حيث الإحساس بالمجموع.

(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[٢٧].

[٢٧] رواه مسلم وأحمد في المسند انظرالفتح الكبير ١٣٢/٣.

الصيام

الإنسان روح وجسد، فالروح تشده إلى اصلها وتفتح له أبوابا نحو أشواقها وتطلعاتها، وتحدوه نحو عالمها اللطيف والتخلص من أغلالا الجسم وقيوده فهي الهابطة من المحل الأرفع المتطالعة على الدوام إلى العالم الذي منه هبطت عالم الصفاء والاشراق والتجرد.

والجسد هو الأخر يسحبه نحو عالمه، عالم الصلصال والحمأ المسنون (لقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون) الآية. ويجذبه نحو الأرض، ويدعوه إليها: (اتل عليهم نبأ الذي أتيناه آياتنا فانسلخ منها..... لعلهم يتفكرون)الأية.

ويكاد تاريخ الإنسان أن يكون قصة صراع بين الطبيعتين، فإذا تغلب الأولى وتطرفت –انشغل الإنسان بالرهبانية فابتدعها وغلا في التقشف ورفض الطيبات ولجأ إلى العزلة يبحث فيها عن السمو الروحي: (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) الآية.

وهذا تخل ظاهر عن منصب الخلافة وانسحاب من ميدان الكفاح[٢٨].

وإذا تغلبت الطبيعة الأخرى؛ طبيعة الجسد، فذلك يعني انفلات الإنسان من قيود العقل والشرع وتخليه عن سلطان الأخلاق واهماله للروح، وانشغاله بمعدته واسترساله مع لذاته وشهواته، فيتبلد فيه كل إحساس غير الإحساس باللذة والمتعة ويتخلى عن كل هم إلا هم الكسب ليأكل والأكل ليكسب: ٠الذين كفروا يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)الآية.

ومهمة الإنسان في هذه الأرض والغاية التي خلق لها تقتضي ان لا يكون الانسان ذلك الراهب، ولا ذلك الحيوان، فلا الروحانيةالخالصة ولا المادية البهيميةالمحضة، بمحققه للإنسان القدرة على أداء مهمته، ولذلك فقد أمر الله تعالى بالصوم ليكون عاملا

[٢٨] أنظر الأركان الأربعة.

هاما في تحقيقه التوازن في الإنسان، ولينمي فيه ملكة القدرة على مقاومة المغريات والاستغناء عن المتع الحسية بمتع روحية لا يمكن تحقيقها عن طريق المحسوس.

يقول الإمام الغزالي: المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل وهو الصمدية، والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فإنهم منزهون عن الشهوات.

والإنسان رتبته فوق البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه، وكونه مبتلى بمجاهدتها، فكلما انهمك في الشهوات انحط الى اسفل سافلين، والتحق بغمار البهائم، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة[٢٩].

ويزيد العلامة ابن القيم هذا إيضاحا فيقول:

المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المالوفات وتعديل قوتها الشهوانية لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعمتها وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وصورتها... ويذكرها بما للأكباد الجائعة من السالكين، وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة، فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كل عضو منها، وكل قوة عن جماحها، وتلحم بلحامه فهو لحام المتقين وجنة المحاربين، ورياض الأبرار المقربين.

ويمضي العلامة ابن القيم قائلا:

وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استويت عليها أفسدتها، وإفراغ المواد الرديئة المانعة لها عن صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ويعيد إليها ما استبلته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى، كما قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم..... لعلكم تتقون) الآية.

[٢٩] أنظر: إحياء علوم الدين ١٣٦/١ أوفست دار المعرفة/بيروت.

وقال النبي –ﷺ– (الصوم جنة)[٣٠].

وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح، ولا قدرة له عليه بالصيام وجعله وجاء هذه الشهوة[٣١].

والمقصود: أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفطر المستقيمة، شرعه الله تعالى لعباده رحمة لهم، واحسانا إليهم، وحمية وجنة[٣٢].

وفي موضع آخر قال رحمه الله:

لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفا على جمعيته على الله، ولم يشعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شعث القلوب لا يلمه إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب وفضول مخالطة الأنام وفضول الكلام وفضول المنام مما يزيده شعثا ويشتته في كل واد، يقطعه عن سيره إلى الله تعالى أوبعضه، أو يعوقه، اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن يشرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى وشرعه بقدر المصالح بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضره ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة[٣٣].

فلهذه الحكم السامية وغيرها مما لا يحيط به علم العلماء وذكاء الأذكياء شرع العليم الخبير الصوم ليكون جنة للروح والجسد، فأنزل الله تعالى قوله: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام..... ولعلكم تشكرون) الآية.

فعبادة الصيام وما يعود منها على الإنسان كثير الفوائد، وعظيم المنافع الدنيوية والأخروية، يتحقق التوازن المطلوب والتوسط والاعتدال والطاقة على الاحتمال وغير ذلك من المور الضرورية لتكين الإنسان من أداء مهمة الخلافة في ارض الله تعالى.

---

[٣٠] رواه أحمد والنسائي عن أبي هريرة ورواه آخرون أيضا عن غيره، أنظر الفتح الكبير ٢/٢٠٥-٢٠٦.

[٣١] يشير إلى الحديث الصحيح (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) وقد رواه الستة وأحمد عن ابن مسعود، أنظر الفتح الكبير ٣/٤٠٢.

[٣٢] نفس المصدر، زاد المعاد١٥٢.

[٣٣] نفس المصدر ١٦٨.

الحج

قال الله تعالى: (وأذن في الناس بالحج..... وليطوفو بالبيت العتيق) الآية.

لقد اختار الله تعالى أمورا محسوسة نسبها إلى نفسه، وربط بها وقائع وأمور تذكر الانسان بأيام الله وآلائه ودينه وتوحيده وسماها (شعائر الله) وجعل تعظيمها تعظيما له، فالإنسان بفطرته يبحث عن المحسوس ليوجه لواعج أشواقه وألوان حنينه ويشبع بتعظيمه والقرب منه رغبته الملحة تلك (ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) الآية.

والإسلام تشريع العليم الخبير اللطيف بعباده السميع البصير، والمطلع على ما تخفي الصدور وتضمر السرائر والله تعالى يعلم من خلقه هذا ويعلم أن صلتهم به لا بد وأن يرافقها حب له وشوق إلى لقاءه، قال تعال: (والذين آمنوا أشد حبا لله) الآية.

وقال: (قل إن كان آباؤكم وابناؤكم وإخوانكم ..... والله لا يهدي القوم الفاسقين) الآية.

يقول الإمام الغزالي: اعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضروريات فيها والتجرد لله سبحانه، في جميع الحركات والسكنات، ولأجل هذا انفرد الرهبانيون في الملل السابقة عن الخلق والزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعا في الأخرة، وأثنى الله عز وجل في كتابه فقال: (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) الآية.

فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله عز وجل وفتروا عنه بعث الله عز وجل بنبيه مُحَمَّدا ﷺ لإحياء طريق الأخرة، وتجديد سنة المرسلين في سلوكها فانعم الله عز وجل على هذه المة بأن جعل الحج رهبانية لهم، فشرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى ، ونصبه مقصدا لعباده، وجعل ما حواليه حرما للبيت تفخيما لأمره وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه وأكدحرمة الموضع بتحريم

صيده وشجره، يقصده الزوار من كل فج عميق، ومن كل اوب سحيق شعثا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له خضوعا لجلاله، واستكانة لعزته، مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد، ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم وأتم في اذعانهم وانقيادهم.

ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا لا تانس بها النفوس ولا تهتدي إلى معانيها العقول: كرمي الجمار بالحجار والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار وتمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية، فإن الزكاة انفاق ووجهه مفهوم وللعقل إليه ميل.

إنما هو ذلك العبد الطائع لكل أمر، المنفذ لكل إشارة، المتنازل بطوعه واختياره عن حريته، المختار لعبوديته، ينزل بمنى فلا يلبث أن يؤمر بالإنتقال إلى عرفات نت غير أن يقف بالمزدلفة.

ويقف بعرفات ويظل سحابة النهار مشتغلا بالدعاء والعبادة، وقد تحدثه نفسه لوترك الأمر لاختياره بالمكث بعد الغروب ليستحم ويستريح، فلا يسمح له بذلك، ويؤمر بالانتقال إلى المزدلفة.

ويقضي حياته محافظا على الصلوات في وقتها، ويؤمر بترك صلاة المغرب في عرفة لأن العبد يجب أن يتحرر من العبودية لأية عادة أو عبادة فالعبودية لله وحده ولا يعبد الله إلا بما أمر وكما أمر، فعليه أن يصليها في المزدلفة جمعا مع العشاء.

وقد يطيب له البقاء في المزدلفة، ولكن ليس له أن يبقى أكثر من الوقت المشروع لينتقل إلى منى.

وهكذا كانت حياة رسول الله واحبابه والصالحين من عباده، نزل وارتحل ومكث وانتقل ونقض وابرام وهجرة واستيطان فلا خضوع لعادة، ولا إجابة لشهوة ولا اندفاع مع هوى[٣٤] .. ذلك بعض مقاصد الحج.

ومن مقاصده أيضا موافقة ما توارث الناس عن سيدنا ابراهيم واسماعيل عليهما السلام، بعث لتظهر به الملة الحنيفية وتعلو به كلمتها وهو قوله تعالى: (ملة أبيكم

[٣٤] أنظر الأركان الأربعة ٢٣٠ وما بعدهاز

ابراهيم) الآية. فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إمامها من خصال الفطرة، ومناسك الحج، وهو قوله ﷺ: (قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من أبيكم)[٣٥] .

إن الحج يشعر المؤمن بأنه ذلك الإنسان الموصول بكل أهل الإنسان والتقوى من عباد الله ، منذ خلق الإنسان ومنذ وجد الخير والشر على ظهر الأرض، فهو ليس بالمنبت، بل هو الوارث لما ترك الأنبياء، والمورث له للدنيا كلها، ولمن بعده.

فهو وارث التوحيد، والتوكل على الله والتفاني في سبيله وإخلاص الحب والعبودية له والتمرد على العادات والمعايير المنافية لطاعته، تلك بعض أسرار الحج، ونبذ من معانيه، نسأل الله تعالى أن يفقهنا في ديننا ويلهمنا رشدا، إنه سميع مجيب.

إعداد وتقديم
الدكتور طه جابر العلواني

[٣٥] حجة الله البالغة:٤٢/٢ والأركان الربعة ٢٣٤.